المفاهيم السيميائية في أشهر كتب التراث الأدبي عند العرب.
البيان والتبيين للجاحظ أنموذجاً.

أ. قدري محمد أبوالقاسم القنوني
كلية الآداب، جامعة الزاوية

مقدَّمة:

السيمياء (علم أسرار الحروف)، علم قديم قدم الإنسان نفسه، ومع اختلاف منطلقات هذا العلم النظرية من عصر إلى آخر، ومن أمة إلى أخرى، مع اختلاف الحضارات، وتعاقب الحقب التاريخية، عرف العرب علم السيمياء منذ القدم، وإنْ جاءت دراساتهم له خليطاً مع علوم أخرى متنوِّعة، منها علم النحو، وعلم اللغة، وعلم الدلالة، وكذلك علم البلاغة، وعلم التفسير، وعلم الفلسفة... وغيرها، تدل في مجملها على أنَّ التراث العربي قد خلق أفكاراً سيميائية ذات أصول وقواعد عربية خالصة، وردت تحت عدَّة مسمَّيات، منها العلامة، أو الدلالة وغيرها.

استخدم العرب قديماً علوم السيمياء في مجالات علمية متعدِّدة، منها علم الرياضيات، والطبيعة، والكيمياء، والفلسفة، وعلم النفس، كما ارتبط هذا العلم بعلم السحر والطلاسم، وهو ما يجعل السيمياء موضوعاً قديماً في تجاربه واحتكاكه بالكون والطبيعة، كما يجعله موضوعاً مستحدثاً في اصطلاحاته العديدة، واتساع ميادينه، وتنوُّع مجالات استعماله.

ومع بقاء هذا العلم حبيس التجربة الذاتية، وعدم الدخول في حيز التجربة العلمية الموضوعية إلا في عصور متأخرة، فقد بات من المؤكد ظهور علوم السيمياء في تاريخ الحضارة العربية منذ عصور مبكِّرة، على يد عدد من العلماء العرب، أمثال الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، ابن سيناء، الفارابي، ابن خلدون، الغزالي، ابن عربي، الحاتمي، وحازم القرطاجني... وغيرهم. وهذا ما ينفي مزاعم البعض بأنَّ النقد العربي الحديث والمعاصر قد عرف السيمياء وعلومها مؤخراً؛ نتيجة احتكاكهم المعرفي مع الغرب.

إنَّ أوسع فضاء لدراسة السيمياء هو فضاء اللغة والأدب، فهو بصورة خاصة، أوسع ميداناً مفتوحاً لدراسة علم العلامات أو الإشارات، أو الأدلة اللغوية أو الرمزية، سواء الطبيعية منها، أو الاصطناعية، وهو ما يحقِّق اتفاق كثير من الناس على دلالاتها ومقاصدها، كما في لغة الصم والبكم، وعلامات المرور، والشفرة السرية وغيرها.

وانطلاقاً من عنوان هذه الموضوع (**المفاهيم السيميائية في أشهر كتب التراث الأدبي عند العرب، البيان والتبيين للجاحظ أنموذجاً**)، فأنَّ أهميته تكمن في معرفة أبرز ملامح الدرس السيميائي، وأبعاده العلمية والفكرية ومصطلحاته في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وهو من أوائل العلماء العرب في ميادين الأدب والنقد والبلاغة.

كما تكمن إشكالية البحث في التساؤل الآتي:

كيف تناول الجاحظ علم السيمياء في كتابه البيان والتبيين؟

ويتفرَّع عن هذه الإشكالية التساؤلان الآتيان:

كيف عرف العرب السيمياء قديماً؟

ما الجوانب العلمية للسيمياء التي تناولها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين؟

وبشأن المنهج المتبع، فقد تم الاعتماد على تطبيق المنهج الوصفي التاريخي؛ وذلك لملاءمته لدراسة هذا الموضوع، وإظهار كوامنه، وكشف أسراره.

أولاً: تعريف السيمياء:

1- السيمياء في اللغةً:

ورد في لسان العرب أنَّ لفظ (سمه) أصله (وسمة) مشتقه من الجذر اللغوي (سام)، المقلوب عن (وسم) الذي على وزن (عِفْلَى)، من الصورة (فِعْلَى).

والعرب يقولون (سيمى) بالقصر، و(سيماء) بالمد، (وسيمياء)، بزيادة الياء والمد، وسَوَّم إذا جعل سمة، ويقال الخيل المسوَّمة، أي التي عليها السيما أو السومة، ويراد بذلك جميعاً العلامة [1].

ويشير ابن منظور إلى أنَّ مصطلح (السّيمياء) يحيل على ألفاظ مشتقة من جذر (و.س.م)، ومنها: الوسم: وهو: أثر الكي، والجمع وسوم.

والسمة والوسام: ما وسم به البعير من ضروب الصور. والميسم: المكواة أو الشيء الذي يوسم به الدواب، والجمع مواسم ومياسيم. والموسوم: هو ما وُسم بِسِمة يُعرف بها، إما كيَّة، وإما قطع في أذن، أو قرمة تكون علامة له.

يتضح ممَّا سبق أنَّ السمة تعني الإشارة أو العلامة التي تميِّز بعض الأشياء عن غيرها، وأنَّ من مجمل اشتقاقات لفظ السيمياء في معاجم العربية يحكم بعربية هذا اللفظ دون شك، وإنْ قابل وقرب من لفظ السيموطيقيا أو السيميولوجيا عند الغرب.

ورد لفظ (سيمياء) في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، وبمواضع متفاوتة، وسياقات متعدِّدة، يحمل جميعها معنى العلامة، سواء ما يتصل منها بملامح الوجه أو الهيئة، أو الأفعال أو الأخلاق.

ومن الشواهد القرآنية الدالة على ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾[2]، وفي بيان تلك الحجارة يقول الزمخشري: "معلَّمة للعذاب... كانت معلَّمة ببياض وحمرة، وقيل عليها سيماً يعلم بها أنَّها ليست من حجارة الأرض"[3].

وقول ابن عاشور: "المسوّمَة: التي لها سِيما، وهي العلامة، والعلامات توضع لأغراض، منها عدم الاشتباه، ومنها سهولة الإحضار، وهو هنا مكنّى به عن المُعدّة المهيّئة لأنَّ الإعداد من لوازم التوسيم...لأنَّ تسويمها عند الله هو تقديره إياها لهم"[4].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ**﴾[5]. وفي بيان تلك السمات يقول أبو السعود: "بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها من سواد الوجه"[6].

وفي قوله تعالى:﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾[7]، ولتوضيح المراد من تلك السمات يقول ابن عاشور: "اختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنَّها "من أثر السجود" على ثلاثة أنحاء الأول: أنَّها أثر محسوس

للسجود، الثاني أنَّها من الأثر النفسي للسجود، الثالث أنَّها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة"[8].

يتضح من مجمل هذه الشواهد القرآنية وغيرها مدى اهتمام القرآن الكريم بالدعوة إلى التأمل في السمة؛ بغية اكتشاف بنيتها الدلالية التي قد تتمثّل في شكل يمكن رؤيته، أو لمسه، أو سماعه، أو شمه، كما تتمثَّل في فكرة أو بناءٍ عقلي لشيء ما، بدلاً من الشيء نفسه، يأتي المعنى الدلالي في كل ذلك بالاعتماد على السياق الذي تستعمل فيه تلك السمة.

ومن ملامح استعمال السيمياء في الشعر العربي، قول الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعاً ... له سيمياء لا تشق على البصر

أي حسَّنه الله تعالى، وأنَّ هذا الحسن يسر الناظرين إليه.

ويلحظ أنَّ تعريف السيمياء في معاجم العربية المعاصرة لا يختلف عمَّا ورد في معاجم العربية القديمة، فالسيمياء هي: السمة، العلامة، أو الرمز الدال على معنى مقصود لربط تواصلٍ ما"[9].

2- السيمياء في الاصطلاح:

من ملامح اهتمام العلماء العرب وعنايتهم بالدلالة، ومدى ارتباطها بالسمة والعلامة والأمارة أو الآية، البرهان، الدليل، تأتي أغلب تعريفاتهم لها قديماً وحديثاً، والتي منها قول الراغب الأصفهاني: "الدلالة ما يتوصَّل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعني، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة، وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله دلالة، أم لم يكن يقصد"[10].

وقول الشريف الجرجاني: "الدلالة: هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول"[11].

وما ورد في حديث عبد القاهر الجرجاني حول ما يعرف بـ(معنى المعنى) بقوله: "الكلام على ضربين ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده... وضرب آخر

أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض"[12].

وقوله عن العلاقات وفضائها الدلالي: "أنْ تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أنْ تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[13].

ويعقد الرازي فصلاً للحديث على دلالة اللفظ على المعنى، ويقسِّمها إلى وضعية وأخرى عقلية قائلاً: "الوضعية كدلالات الألفاظ على المعاني، التي هي موضوعه بإزائها.... وأمَّا العقلية فإمَّا على ما يكون داخلاً في مفهوم اللفظ، وإمَّا ما يكون خارجاً عنه"[14].

ومن المحدثين العرب يعرِّف سعيد بنكِراد السيميائية بأنَّها ""**ليست تياراً واحداً منسجماً، وليست فكرة معزولة، كما أنَّها ليست نظرية جاهزة محدَّدة من خلال مفاهيم موحدَّة وموحِّدة** "[15].

ومن علماء الغرب عرَّفها دوسوسير بأنَّها: دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية"[16].

والجدير بالذكر أنَّ مصطلح السيماء أو نظام العلامات قد "شاع مع منتصف القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، على أيدي عدد من علماء الغرب ومنظِّريهم، أمثال دي سوسير العالم الألسني... والفيلسوف بيرس"[17].

ممَّا سبق يمكن استخلاص أنَّ دلالة اللفظ لا تأتي من الجانب الشكلي المكتوب فقط، وإنَّما للسياق دور بارز في الكشف عن دلالات خفية، فالدلالة غير ثابتة، والعلامة قابلة للتبدّل وفق سياقات إيرادها، باعتبار أنَّ (المدلول) قد يتحوَّل إلى (دال) بحثاً عن مدلول آخر، وأنَّ المعنى إشارة تعود على موضوعها الذي أفرزه المعنى.

ومع توسُّع العرب في تقسيم الدلالة إلى عدَّة أنواع، وهي الدلالة العقلية، الدلالة اللفظية، الدلالة الوضعية، الدلالة الخطية، الدلالة النصية، ودلالة المطابقة... فقد اكتفى الجاحظ بتقسيم الدلالة إلى دلالة عقلية: وهي أنْ يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة

ذاتية تنقله من أحدهما إلى الآخر، ودلالة طبيعية: وهي ما يجد فيها العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعية تنقله من أحدهما إلى الآخر.

والدلالة الوضعية: وهي أنْ يكون بين الدال والمدلول علاقة الوضع كدلالة اللفظ على المعنى.

ثانياً: السيمياء في البيان والتبيين:

يمثِّل كتاب (البيان والتبيين) طليعة كتب الأدب والنقد والبلاغة عند العرب، وقد برزت فيه عناية الجاحظ بما عرف قديماً بعلم أسرار الحروف، أو علم نظام العلامة، وهذا العلم في عصر الجاحظ لا يزال في طور النشأة والتكوين، ولم تضبط مصطلحاته، وتحدَّد أصوله، وتقعَّد قواعده.

تحدث الجاحظ عن الدلالة وبيان مفهومها، وتحديد أبعادها العلمية، باعتبار أنَّها كل ما دلَّ على شيء معيَّن، سواء كان صامتاً أو غير صامتٍ، ظاهراً أو خفياً، قائلاً: "فجعلنا في كلِّ أحوالنا لا تُفْتَح أبصارُنا إلا وهي واقعةٌ على ضربٍ من الدلالة، وعلى شكل من أشكال البرهانات، وجعل ظاهر ما فيها من الآيات داعياً إلى التفكير فيها"[18].

فالدلالة هي ما تهدف إلى إبانة الأمر واستيضاحه والإرشاد إليه، وفي ظل هذه الغايات المشتركة يجمع الجاحظ الدلالة بالبيان قائلاً: "الدِّلالة الظاهرةُ على المعنى الخفيِّ هو البيانُ الذي سمِعْتَ اللَّه عزّ وجلّ يمدحُه، ويدعو إليه ويحثُّ عليه، بذلك نَطَقَ القُرآنُ، وبذلك تفاخَرَت العَرب، وتفاضَلَتْ أصنافُ العَجَم"[19].

فالدلالة بهذا المفهوم تحمل ثلاثة أبعاد هي: دال، ومدلول، والعلاقة بينهما. وجميعها في نظر الجاحظ تمثل عناصر نظرية الإرسال والتلقِّي.

وبشأن أصناف الدلالات، وتحديد العلامات والإشارات التي تدل على المعاني لفظية كانت أو غير لفظية، ويتحقق بها التواصل الإنساني، يقول الجاحظ: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمَّى نِصبة"[20].

وانطلاقاً من ثراء البيان بالمعاني المتنوِّعة والمتعدِّدة في تحقيق التواصل والتبليغ، وأنَّ البيان يهدف إلى الفهم والإفهام، وهما الغاية التي يسعى إليها القارئ والسامع على حد سواء، يجعل الجاحظ البيان مرادفاً للدلالة ومرتبطاً بها، وهي الرسالة التي تقوم السيمياء من أجلها.

عرَّف الجاحظ البيان قائلًا: "البيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمير، حتّى يُفْضِيَ السّامعُ إلى حقيقته، ويَهجُم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ، ومن أيِّ جنسٍ كان الدّليل؛ لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائل والسّامع، إنَّما هو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ، وأوضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع"[21].

كما أطلق الجاحظ لفظ المنطق قاصداً الإفصاح والإبانة عمَّا في الضمير من المعاني التي ستترجم بواسطة الألفاظ وغيرها من الدلالات، وجعله قريناً للبيان قائلاً: "فإذا قالوا: في لسانهُ حكْلة، فإنما يذهبون إلى نُقصان آلة المنطق، وعَجْز أداة اللفظ، حتى لا تُعْرَفَ معانيه إلا بالاستدلال"[22].

وبحديثه عن المفهوم الشامل للبيان، والأساس الذي ينطلق منه، بأنَّه وسيلة للتواصل الخطابي بوظائفه المتنوِّعة، وما تقتضيه المصلحة من وجود مخاطب يرسل خطاباً، ومخاطباً يتلقَّى ذاك الخطاب في سياق معيَّن، يقول الجاحظ: "لا يعرف الإنسانُ ضميرَ صاحِبه، ولا حاجة أخيه وخليطِه، ولا معنَى شريكِهِ والمعاونِ له على أموره، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره، وإنَّما يُحيي تلك المعانيَ ذكرُهم لها، وإخبارُهم عنها، واستعمالُهم إيّاها، وهذه الخصالُ هي التي تقرّبها من الفهم، وتُجَلِّيها للعقْل، وتجعل الخفيَّ منها ظاهراً، والغائبَ شاهداً... والغُفْل موسوماً، والموسومَ معلوماً، وعلى قَدر وُضوح الدَّلالة وصوابِ الإشارة، وحسن الاختصار، ودِقّةِ المَدْخَل، يكون إظهارُ المعنى، وكلّما كانت الدَّلالة أوضَحَ وأفْصَح، وكانت الإشارةُ أبيَنَ وأنْوَر، كان أنفَعَ وأنْجَع"[23].

ويؤكد أنَّ مجال التواصل بمختلف أشكاله، وتنوِّع أنماطه، وتعدُّد أنظمته، مرده جميعاً إلى البيان والدلالة التلازمية الموجودة بمختلف العلامات قائلاً: "وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا

يستدِلُّ تَمْكِينَـهُ المستدِلَّ من نفسه، واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلاَلة، وأُودِع مِن عَجيب الحكمة، فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتة، ناطقةٌ مِن جهة الدَّلالة، ومُعْرِبةٌ من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكمة، مخبرٌ لمن استخبَرَه، وناطقٌ لِمَن استنطقه"[24].

وبهذا يكون إدراك المعنى وبلوغه لا يتحقَّق إلا بتوافر جملة من الضوابط التي يتقدَّمها وجود الدلالة ووضوحها في مختلف علامات التواصل والتبليغ.

وتبرز عناية الجاحظ بثنائية اللفظ والمعنى، وما يقتضي أنْ يتوفَّر في كل منهما، مع تحديد طبيعة العلاقة بينهما بقوله: "حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأنَّ المعاني مبسوطة إلى غير ذلك، وممتدة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني... وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد"[25].

ويستدل الجاحظ بقول بشر بن المعتمر: "من أَرَاغَ معنىً كريماً فليلتمِسْ له لفظاً كريماً؛ فإنّ حقّ المعنى الشريفِ اللفظُ الشّريف، ومن حقِّهما أنْ تصونهما عما يفسدُهما ويهجِّنُهمَا"[26].

ومن ملامح اهتمامه بالمعاني كذلك، إشارته إلى ما يكون منها ظاهراً قريباً، أو يكون خفياً بعيداً، إذ يقول: "قال بعضُ جهابذة الألفاظِ ونُقَّادِ المعاني: المعاني القائمة في صدور النّاس المتصوَّرَة في أذهانهم والمتخلِّجة في نفوسهم، والمتَّصِلة بخواطرهم، والحادثة عن فِكَرهم، مستورةٌ خفيّة، وبعيدةٌ وحشية، محجوبةٌ مكنونة، وموجودةٌ في معنَى معدومةٍ، لا يعرف الإنسانُ ضميرَ صاحِبه، ولا حاجة أخيه وخليطِه، ولا معنَى شريكِهِ والمعاونِ له على أموره"[27].

العلامة عند الجاحظ:

من أبرز ما يؤكده الجاحظ في حديثه عمَّا له علاقة وطيدة بعلم السيمياء بمفهومها المعاصر، حديثه عن وسائل البيان التبليغية، وجعلها تتحقَّق في خمسة وسائل أجملها في

قوله: "جميعُ أصنافِ الدِلاَّلات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقُص ولا تَزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخَطّ، ثمَّ الحالُ التي تسمّى نِصْبةً"[28].

وأنَّ هذه العلامات بمختلف أنواعها وضعية كانت مثل اللفظ والإشارة والعقد، أو عقلية مثل العقد والنصبة، ومع اختلاف صورة كل علامة منها عن الأخرى، فهي تكشِف عن أعيان المعاني في الجملة، وعن حقائقها في التَّفسير، وهي تمثِّل أقسام البيان والدلالة عند العرب، وأنَّ ما أورده الجاحظ قد يعد منهجاً مبكِّراً لتأسيس النظرية السيميائية عند العرب، وهذا ما يؤكده محمد الصغير بناني بقوله: "إنَّ المتكلم لا يقبل أنْ يحصر بلاغته في الدليل اللساني، فهو يتناولها من خلال جميع دلائلها اللسانية وغير اللسانية، وهي أقرب إلى علم السيمياء منها إلى اللسانيات"[29].

وفيما يلي يستعرض البحث العلامات التي تنقل المعاني؛ لاستخلاص أبرز الملامح السيميائية التي يراها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين.

1- اللفظ:

اللفظ أو(الصوت المقطَّع) أبرز الخواص التي يتميز بها الإنسان عمَّا سواه من المخلوقات، فهو يملك ملكة التعبير عن نفسه باستعمال الألفاظ التي تعد إحدى الدلالات على المعاني، ووسيلة من وسائل التعبير والتواصل بين الناس.

يتصدر اللفظ علامات البيان عند الجاحظ، وهو يقول: "وجميعُ أصنافِ الدِلاَّلات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقُص ولا تَزيد: أولها اللفظ"[30].

وقد ظهر حرصه على استعمال اللفظ في السياق التركيبي وتحقيق جودته، ومن ملامح ذلك قوله: "ومتى شاكل أبقاك اللّه ذلك اللفظُ معناه؛ وأعرب عن فَحواه، وكان لتلك الحال وَفْقاً، ولذلك القدرِ لِفْقاً، وخَرَج من سماجة الاستكراه، وسلِم من فساد التكلُّف، كان قميناً بِحُسن الموقع، وبانتفاع المستمِع... ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه، متخيَّراً من جنسه، وكان سليماً من الفُضول، بريئاً من التعقيد، حُبِّب إلى النُّفوس، واتَّصل بالأذهان، والتحَمَ بالعقول، وهشَّت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفَّ على ألسُن

الرُّواة، وشاع في الآفاق ذِكرُه، وعظُم في الناس خَطَره، وصار ذلك مادَّةً للعالِم الرئيس، ورياضة للمتعلّم الريِّض"[31].

وقوله أيضاً: "قد يكون القليلُ من اللفظِ يأتي على الكثير من المعاني"[32].

وينبِّه الجاحظ إلى بعض المعايب التي قد تلحق باللفظ قائلاً: "وكما لا ينبغي أنْ يكون اللفظُ عامّيّاً، وساقطاً سُوقيّاً، فكذلك لا ينبغي أنْ يكون غريباً وحشيّاً؛ إلاّ أنْ يكون المتكلِّم بدويّاً أعرابيّاً؛ فإنَّ الوحشيَّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس، كما يفهَمُ السُّوقيّ رِطَانَة السُّوقيّ"[33].

2- الإشارة:

تعد الإشارة من وسائل البيان والتبليغ، والدلالة عن المعاني التي يعبَّر بها عمَّا يجيش بالخاطر دون أي تلفُّظ، وهي في نظر الجاحظ من لغات البيان والتبيّن، وشريكة للفظ قائلاً: "الإشارة واللّفظ شريكان، ونِعْم العونُ هي له، ونعم الترجمانُ هي عنه، وما أكَثرَ ما تنوب عن اللّفُظِ، وما تُغني عن الخطِّ"[34].

ولبيان حاجة الناس إليها يقول: "لولا الإشارةُ لم يَتفاهم النَّاسُ معنَى خاصّ الخاصّ، ولَجَهِلوا هذا الباب البتّة"[35].

وأنَّ هذه الإشارة يعبِّر بها الإنسان عن مضمون مقاصده وغاياته، وأنَّ ذاك التعبير قد يأتي بواسطة الرأس أو اليد أو العين أو الحاجب، وفي هذا يقول الجاحظ: "فأمّا الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمَنْكِب إذا تباعَدَ الشخصان، وبالثَّوب وبالسَّيف، وقد يتهدَّد رافعُ السَّيف والسَّوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً"[36].

فالإشارة باليد أو الرأس أو العين أو الحاجب أو المنكب أو الثوب أو السيف أو السوط، هي وسائل تنوب عن الجوارح تعبيراً عن دلالة المعاني، وهو ما يشير إليه الجاحظ بقوله: "ربَّ كلمةٍ تُغْنِي عن خطبة، و تنوب عن رسالة، بل ربَّ كنايةٍ تربي على إفصاح، ولحظٍ يدلُّ على ضمير، وإنْ كان ذلك الضمير بعيدَ الغاية"[37].

ويقسِّم الجاحظ الإشارة إلى قسمين:

القسم الأول: ما تشترك فيه الإشارة مع اللفظ.

وهو ما تأتي الإشارة فيه قرينة للفظ، متزامنة مع النطق به، كأنْ يقول الإنسان (نعم) عند القبول، أو (لا) عند الرفض، مع تزامن حركة اليد مع ذاك القول، فحركة اليد هذه تعد تعبيراً عن المعنى المراد، والمعبَّر عنه نطقاً، فالإشارة تتبع اللفظ فيما يخص المعنى وإنْ انفصلت عنه، فهي إشارة مساعدة لها وظيفة ودلالة تواصلية تؤديها، وفي هذا يقول الجاحظ: "ومن شأن المتكلمين أنْ يُشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم، فإذا أشاروا بالعصيِّ فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيدياً أُخَر"[38]. فالإشارة في هذا المقام بمثابة الحركة المساعدة التي يستعين بها المتكلم لتبليغ ما يريد إبلاغه وإيصاله.

القسم الثاني: الإشارة المنفردة عن اللفظ.

وهي ما تتكوَّن من وحدات منفردة مختلفة ليست من نفس المادة التي تتكوَّن منها وحدات الكلام، بل هي حركات تدرك عن طريق العين، وهو ما يؤكده الجاحظ بقوله: "فأمّا الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمَنْكِب، إذا تباعَدَ الشخصان، وبالثَّوب وبالسَّيف، وقد يتهدَّد رافعُ السَّيف والسَّوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً، والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم البرهان هي عنه، وما أكْثَرَ ما تنوب عن اللّفْظِ، وما تُغني عن الخطِّ"[39].

فالإشارة قد تنوب عن اللفظ، وتكون وسيلة لنقل المعنى، فهي تتميز عن اللفظ أحياناً بقدرتها على إيصال الرسالة التي يصعب معها استعمال الصوت، كما في بعد المسافة أو عند اشتداد صخب المعارك، وفي هذا يقول الجاحظ: "ومبلغُ الإشارة أبعَدُ من مبلغ الصَّوت فهذا أيضاً باب تتقدَّم فيه الإشارةُ الصوتَ"[40].

ويستدل الجاحظ بما ورد في قول عمر بن ربيعة الذي يعتمد فيه بأدلة الإشارة على تحقيق المعنى المراد قائلاً:

أشارتْ بطَرْفِ العين خِيفةَ أهلِها ... إشارةَ مذْعورٍ ولم تتكَلَّمِ

فأيقنْتُ أنَّ الطَّرْفَ قد قال مرحباً... وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيَّم

فالاستعانة بإشارة العين دليل على ما يضمره قلب المرء من محبة أو كره، أو غير ذلك، وقد دلت إشارة العين في هذه الأبيات على معنى التهليل والترحيب، وأغنت عن النطق والكلام.

3- العقد: (العد بالأصابع).

العقد أو العد بالأصابع نظام بياني، وعلامة من علامات التبليغ والتواصل، وهو في جوهره ضرب خاص من الحساب يتم بأصابع اليدين، يستعمله العرب عند المساومات في البيع والشراء، ومن هذا المنطلق يأتي تعريفه عند الجاحظ بأنَّه: "الحساب دون اللفظ والخط"[41]. وأنَّ لهذا النظام أفضلية تتمثَّل في إمكانية إدراكه بحاسة البصر وبغيرها، إذ يمكن للأبكم تحقيق التواصل مع الآخرين، كما يمكن للمكفوف التواصل باستخدام حاسة اللمس. وبهذا يمكن أنْ يتحقق التواصل بين أفراد المجتمع دون إحساس أحد منهم بفقد حاسة من حواسه.

وعن أهمية العقد ومدى حاجة الناس إلى معرفته، وعظيم قدر الانتفاع به في معرفة الحساب الدنيوي التي تعد مفتاحاً لمعرفة الحساب الأخروي، يقول الجاحظ: "والحسابُ يشتمل على معانٍ كثيرةٍ ومنافعَ جليلة، ولولا معرفةُ العِبَاد بمعنى الِحساب في الدنيا لمَا فهِمُوا عن اللَّه –عزّ وجلّ– معنَى الحسابِ في الآخرة"[42].

ويسوق جملة من الشواهد القرآنية، منها قولُه تعالى: ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيل سَكَناً والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسباناً ذَلِكَ تَقْديرُ العَزِيزِ العَلِيم**﴾[43]، وقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَل الشّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّه ذَلِكَ إلاّ بِالْحَقّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[44]، وقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحوْنَا آيَةَ اللّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهار مُبْصَرةً لتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلمُوا عَدَدَ السِنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا**﴾[45]، والتعليق عليها بقوله: "الحسابُ يشتمل على معانٍ كثيرةٍ ومنافعَ جليلة، ولولا معرفةُ العِبَاد بمعنى الِحساب في الدنيا لمَا فهِمُوا عن اللَّه –عزّ وجلّ– معنَى الحسابِ في الآخرة"[46].

ويستبين الجاحظ مشمولات العقد، فيذكر منها اللفظ، وهو ما يقع في لغة الكلام، ومنها ما تتم به عمليات الحساب بين الناس، كما هو الحال في ميدان التجارة والاقتصاد، ومنها أصابع اليد التي تتم بها العمليات الحسابية.

كما انتبه إلى التفريق بين العقد والإشارة، قائلاً: "جعل الله اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد"[47].

مستخلصاً أنَّ اللفظ يدرك بالسماع، والإشارة تدرك بالنظر، في حين أنَّ العقد يدرك بأصابع اليد رؤية ولمساً. وبهذا يخلص بأنَّ العقد وسيلة تبليغ وتواصل وتعبير عن جملة معاني ودلالات، يدركها الرائي وغير الرائي من الناس.

4- الخط:

الخط وسيلة بيانية للتواصل بين الأفراد والجماعات عبر كل العصور، ومختلف الأماكن، يعبَّر بها عن المعاني بواسطة الحروف المكتوبة، وقد أظهر الجاحظ في حديثه عن الخط اهتماماً كبيراً بقوانين الخط، وأسسه ونظامه ومبادئه. انطلاقاً من أنَّ الكتابة لغة لها نظامها الخاص، الذي يختلف عن اللغة المنطوقة، وفي هذا يأتي قول الجاحظ: "ولا بين الحروف المجموعةِ والمصورَّةِ من الصوت المقطَّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوّرة من السواد في القرطاس فرق"[48].

فالكتابة لغة لها نظامها المحدَّد بالصورة المرئية، وهو شبيه بنظام اللغة في الصورة الصوتية، فالنظام الكتابي في وحداته المكوِّنة وهي الحروف المصوَّرة في القرطاس، تشابه الحروف الناتجة عن الصوت المقطَّع.

وجعل الجاحظ الخط "دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به"[49].

وعن أهميته وحاجة الناس إليه يقول: القَلَم أحَدُ اللِّسانين... وقالوا: القلمُ أبقى أثراً، واللسان أكثَرُ هَذَراً، وقال عبدُ الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدَرُ أن يحضَّ الذِّهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللِّسان على تصحح الكلام، وقالوا: اللسان مقصور

على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره"[50].

وقوله: "وليس في الأرض أمّةٌ بها طِرْق أَوْ لها مُسْكَة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْط، إلاّ ولهم خطّ"[51]. مستدلاً بالآية الكريمة﴿**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**﴾[52]، والتعليق عليها بقوله: "ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نِسيانٌ، ولكنَّه تعالى وعزَّ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه، أوكَدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور"[53].

كما استدل بقول الطائيُّ، في مدح محمَّدَ بن عبدِ الملك الزَّيات:

وما برِحتْ صُوراً إليكَ نوازعاً ... أعنَّتُها مُذْ راسلَتك الرسائل

لكَ القلمُ الأعلى الذي بشباته ... يُصَابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ

لك الخَلواتُ اللاءِ لولا نجيُّها ... لما احتفلت للمُلْكِ تلك المحافلُ

ويبيِّن الجاحظ مميزات اللفظ والكتابة بقوله: "وقالوا اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر، والقلمُ مطلقٌ في الشاهد والغائب، وهو للغابِر الحائن، مثلُه للقائم الرَّاهن، والكتاب يُقرَأ بكلِّ مكان، ويُدرَس في كلِّ زمان؛ واللسان لا يَعْدُو سامعَه، ولا يتجاوزُه إلى غيره"[54].

يتضح مما سبق أنَّ الخط بطبيعته دليل مادي يمتد في المكان والزمان بلا حدود، وأنَّ دلالة الخط عند الجاحظ هي دلالة عرفية تربط الخط بالمعنى، وهي علاقة تفهم من خلال الممارسة، أو بالتعلم والتكرار أحياناً.

5- النِّصبة (الحال):

النصبة علامة من علامات التواصل والتبليغ، ولها في ذلك خصوصية تميزها عن بقية وسائل التبليغ الأخرى مثل اللفظ، أو الخط، أو الإشارة. وهي تحمل في جوهرها رسالة أو خطاباً يعبِّر عن المكنون الداخلي بواسطة المظهر الخارجي بالاعتماد في ذلك على شدَّة الاستنباط وقوة الملاحظة.

يعرَّف الجاحظ النصبة(الحال) بأنَّها: "النَّاطقة بغير اللّفظ، والمشِيرة بغير اليد"[55]، موضِّحاً ومستدلاً على ذلك بقوله: "الدَّلالة التي في المَوات الجامد، كالدّلالة التي في الحيوان الناطق، فالصَّامتُ ناطق من جهة الدّلالة، والعَجْماء مُعْرِبةٌ من جهة البُرهان"[56].

وبقوله: "والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالةِ، وصدقِ الشهادة ووُضوحِ البرهان، في الأَجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحسُّ، ولا تَفهَم ولا تتحرَّك إلاّ بداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ مُمْسِكٍ خلِّي عنها، بعد أَنْ كان تقييده لها"[57].

يرى الجاحظ أنَّ الأجرام والأفلاك والأشجار والأنهار والجمادات والأموات لها أنْ تعبِّر عن نفسها بإشارة من جنسها بكل صمت، وذلك بالنصبة أو الحال، وهذا برهان ناطق بأنَّ كل هذه المخلوقات من صنيع خالق مبدع أودعها حكمة ودقة ونظام. وهو ما يتفق وقول الجاحظ: "متى دلَّ الشيءُ على معنىً فقد أخبر عنه، وإنْ كان صامتاً، وأشار إليه وإنْ كان ساكتاً"[58].

ويسوق الجاحظ ما ورد في قول الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: "سَل الأرضَ فقُلْ: مَنْ شَقَّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَك، وجَنَى ثِمارَك؟ فإنْ لم تجبْكَ حِواراً، أجابتك اعتباراً"[59]،

وقول عنترةُ العَبْسيِّ:

حَرِقُ الجناحِ كأنَّ لحْيَيْ رأسهِ ... جَلَمَانُ بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ[60].

جاعلاً في هذا البيت نعيبَ الغُراب نذيراً بالفرقة والغربة؛ لأنّ بعض العرب وبعض الشعوب الأخرى يتشاءمون من الغراب ويكرهونه كرهًا شديدًا، واعتباره رمزًا للتشاؤم والنحس.

ممَّا سبق يمكن الاستدلال على براعة الجاحظ في توظيف النصبة علامة للتواصل والتبليغ بقول إدريس بلمليح: "يصح أنْ نعتبر الجاحظ فيما يخص النصبة التي هي إشارة تواصل وإشارة دلالة في آن واحد، مؤسساً لسيمياء خارجة عن حياة الأفراد والمجتمع، ذات طابع تأملي فلسفي"[61].

وفي ختام الحديث في العلامات السيميائية عند الجاحظ يمكن الاستدلال بقول بنكراد الذي يقول فيه: "إنَّها علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية كالسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي"[62]، وقوله: "السيميائيات في جميع هذه الحالات بحث في المعنى لا من حيث أصوله وجوهره، بل من حيث انبثاقه عن عمليات التنصيص المتعدِّدة، أي بحث في أصول السيرورة التي تنتج وفقها الدلالات وأنماط وجودها باعتبارها الوعاء الذي تصب فيه السلوكيات الإنسانية"[63].

الخاتمة:

في خاتمة هذا البحث يمكن استخلاص جملة من النتائج، أهمها:

1- أنَّ علم السيمياء وإنْ لم يرد عند العرب قديماً بهذا المسمَّى، لكنَّهم عرفوه في القرآن الكريم، والحديث النبوي، وفي كلامهم شعراً ونثراً.

2- ظهور الأفكار السيميائية ذات الأصول والقواعد العربية الخالصة في أول مشوارها مبعثرة في أحضان علوم عربية متنوِّعة.

3- يعد الجاحظ رائد السيميائيين العرب، وصاحب الدور البارز في إثراء الدرس السيميائي لديهم بمستوييه النظري والتطبيقي.

4- جاء استخدام الجاحظ للفظ (الدلالة)، بالمدلول نفسه الذي اصطلح عليه اللغويون في عصره.

5- تمثِّل قضية الفهم والإفهام في كتاب (البيان والتبيين) أكبر الغايات السيميائية، إذ تكتسب كل علامة من علامات التواصل والتبليغ نظاماً يخصها، ويزيدها بعداً معرفياً سيميائياً.

6- بناء وسائل البيان التبليغية عند الجاحظ على توافر الدليل والمدلول والعلاقة التي تجمع بينهما.

7- أنَّ ما استدل به الجاحظ من شواهد قرآنية وأحاديث نبوية، ونصوص شعرية ونثرية تعد في مجملها مصادراً لتعزيز نظريته السيميائية.

هوامش البحث ومراجعه:

[1]– ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله عبد الكبير وآخرون، دار المعارف، مادة(و، س، م).

[2]– سورة هود، الآيتان: 82، 83.

[3]– الزمخشري، الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر، ج 284/2.

[4]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ج134/11.

[5]– سورة: الأعراف، من الآية64.

[6]– أبو السعود، تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1999م، ج2/ 494.

[7]– سورة: الفتح، من الآية 29.

[8]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج205/26.

[9]– إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (سوم)، الدار البيضاء، 2000م.

[10]– الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، نشر مكتبة نزار الباز، ج228/1.

[11]– الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق وتقديم: إبراهيم الأبياري، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، 2002م، ص88.

[12]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، نشر مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، 2004م، ص 262.

[13]– المصدر نفسه، ص 263.

[14]– فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1985م، ص87، 88.

[15]– سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذيقية، سوريا، الطبعة الثالثة، 2012م، ص11.

[16]– نقلاً عن كتاب السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، لسعيد بن كراد، نشر دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذيقية، ص 9.

[17]– سيمياء الحواس في كتاب الحيوان للجاحظ، دراسة في النظرية والتطبيق، حسن محمد الربايعة، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 34، العدد 2007/2م، ص 301.

[18]– الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1996م، ج7 / 10.

[19]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ 75.

[20]– المصدر السابق، ج76/1.

[21] – المصدر نفسه، ج76/1.

[22] – المصدر نفسه، ج1/ 40.

[23] – الجاحظ، الحيوان، (مصدر سابق)،75/1.

[24]– المصدر نفسه، ج34/1.

[25]– الجاحظ، البيان والتبيين ج1/ 76.

[26]– المصدر السابق، 1/ 136.

[27]– المصدر نفسه ج75/1.

[28]– المصدر السابق، ج1/ 76.

[29]– محمد الصغير بناني النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر لبنان، بيروت، 1986م، ص 11، 12.

[30]– الجاحظ: البيان والتبيين ج1/ 76.

[31]– المصدر السابق، ج7/2، 8.

[32]– المصدر نفسه، ج4/ 23.

[33]– المصدر نفسه، ج144/1.

[34]– المصدر نفسه، ج78/1.

[35]– المصدر نفسه، ج78/1.

[36]– المصدر نفسه، ج76/1.

[37]– المصدر نفسه، ج7/2

[38]– المصدر نفسه، ج116/3.

[39]– المصدر نفسه، ج77/1، 78.

[40]– المصدر نفسه، ج58/1.

[41]– المصدر نفسه، ج1/ 80.

[42]– المصدر نفسه، ج1/ 80.

[43]– سورة الأنعام، الآية 69.

[44]– سورة يونس، الآية 5.

[45]– سورة الإسراء، الآية 12.

[46]– الجاحظ البيان والتبيين ج1/ 80.

[47]– الجاحظ، الحيوان (مصدر سابق) ج1/ 45، 46.

[48]– المصدر السابق، ج1/ 70.

[49]– المصدر نفسه، ج45/1، 46

[50]– الجاحظ، البيان والتبيين ج1/ 79، 80.

[51]– الجاحظ، الحيوان، ج71/1.

[52]– سورة الإسراء، الآية 14.

[53]– الجاحظ: الحيوان، (مصدر سابق)، 1996م. ج62/1.

[54]– الجاحظ البيان والتبيين ج80/1.

[55]– المصدر نفسه، ج81/1.

[56]– المصدر السابق، ج1/ 81.

[57]– الجاحظ الحيوان ج45/1.

[58]– الجاحظ البيان والتبيين ج1/ 81، 82.

[59]– المصدر نفسه، ج1/ 81.

[60]– محمد سعيد مولوي، ديوان عنترة تحقيق ودراسة، المكتب الإسلامي، ص 263.

[61]– إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1984م، ص 122.

[62]– سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذيقية، سوريا، الطبعة الثالثة، 2021م. 25ص.

[63]– المصدر نفسه، ص 32.